الفصل السابع

مرضه ووفاته

- مرضه الطويل ومغالبة الآلام
- وفاة السباعي
- تشييع السباعي
- الوفاء للراحل الكبير

مرضه الطويل ومغالبة الآلام:

كان السباعي رحمه الله يحمّل جسمه وأعصابه الكثير من إرهاق العمل المتواصل في سبيل الله، مما جعل هذا الجسم على ما يتمتع به من قوة وحيوية نادرة، ينوء بالأثقال التي حملها وحده، وانطلق بها يسابق الزمن، ليشيد خلال عمره القصير صرح الدعوة الإسلامية، ويعبّد الطريق لجنودها في بلاد الشام. ولم يعبأ بنصح الأطباء ولا بأعراض المرض التي كانت تحمل النذير بانهيار هذا الجسم إن لم يرفق به صاحبه.. ولكن الشعور بالواجب والمسؤولية، كان يتغلب عليه ويصم آذانه عن سماع نصائح الأطباء ونذير أعراض المرض، وكان يقول: «يقولون لي.. أرح نفسك لتشفى، ومعنى ذلك.. إدفن نفسك لتسلم!!».

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وقصة كفاحه مع المرض ليست حديثة عهد به، ومرضه الأخير لم يكن إلا نتيجة لمقدمات كثيرة، ونهاية لجهد طويل خلال سني شبابه ومراحل كفاحه، وقد حاولت الأمراض والآلام أن تنال من قوته وحيويته ونشاطه وحركته التي لا تعرف الفتور، فلم تفلح. ولكنها لم تتركه واستمرت تلاحقه وكان في كل مرة يتغلب عليها، وينساها في زحمة النشاط والواجبات والأعباء حتى استحكمت به في نهاية الأمر، وسقط المارد العملاق، بعد طول تجلّد ومجاهدة وأصبح كالأسد الهصور وقد ألقي الشبك على عرينه.

فعندما قاد إخوانه في معارك فلسطين، كان مصاباً قبلها بارتفاع ضغط الدم، وكان الأطباء قد أشاروا عليه بالإخلاد إلى الراحة والسكينة والهدوء

وعدم الخطابة، فلم يعبأ بما قالوا، كما أنه تلطف باعتذاره لأبيه عندما ذكّره بنصائح الأطباء وأن مجرد الخطابة تشكل على صحته خطراً، فكيف بالحرب وخوض المعارك. كل ذلك لم يثبط من عزيمته فمضى يثير الجماهير ويدعوها للتطوع، ومضى يقود المجاهدين إلى المعركة دون أن يحسب حساباً لصحته وما يتهددها..

ولما عاد من فلسطين استمر في كفاحه وجهاده لا يثنيه عن عزمه شيء فلم تلبث أن ظهرت عليه أعراض مرض السكر، فكان يعالج أمراضه ولكنه ما كان يحب الراحة، بل كان يستلذ الكفاح والعمل والنشاط.. فلم يقعده المرض، ولم تفتر به همته، ولم تخبو شعلة نشاطه أو تدفق حيويته.

وفي عام ١٩٥٧ وبعيد عودته من رحلته العلمية إلى الاتحاد السوفييتي هجم عليه المرض هجمة عنيفة فأخذ منه أكثر نصفه الأيسر، فشلّ حركته، وأثار فيه الآلام المضنية، فأقعده بعد طول مجالدة، ولكنه رحمه الله كره القعود، وكره الراحة والكسل، ولو كان بسبب المرض الشديد فتمرد عليه وجالد الآلام، واستمر يتابع نشاطه وإلقاء دروسه الجامعية، ومحاضراته التوجيهية، لطلاب كلية الشريعة في «قاعة البحث».. وقد ألقى خلال مرضه هذا أهم محاضراته العلمية على مدرج جامعة دمشق، منها محاضراته عن «اشتراكية الإسلام»، ومنها محاضراته العلمية الرائعة عن «المرأة بين الفقه والقانون». هذا بالإضافة إلى عديد من المحاضرات العلمية التي ألقاها في النوادي الفكرية والثقافية في دمشق، كما استمر يمد الفكر الإسلامي بكل جديد من فكره وعلمه، ويمد الشباب المسلم بالتوجيه والوعي، ويعالج أهم مشكلات العالم الإسلامي على صفحات مجلته «حضارة الإسلام».

وقد استمرت فترة مرضه سبع سنوات، حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم، إلا من كان له صبر الأنبياء. ورغم هذه الآلام المبرحة المستمرة فقد كانت فترة مرضه هذه من أخصب فترات حياته انتاجاً فكرياً وعلمياً وأدبياً واجتماعياً، فألف القسم الاجتماعي من كتابه «هكذا علمتني الحياة وهو في مستشفى المواساة عام ١٩٦٢، وكان يختلس القلم والقرطاس في غفلة عن أعين الأطباء، الذين شددوا عليه في ضرورة الابتعاد عن التفكير والقراءة والإخلاد إلى الراحة، فكان هذا الكتاب من أروع كتبه وأطرفها لما حواه من الحكمة والتجارب والتوجيه.

ولقد ضرب الأستاذ السباعي خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر الجميل مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله وتحاشي التبرم والشكوى، فما كان يُسمع منه إلا الحمد لله يجري على لسانه كلما سئل عن آلامه مهما اشتدت أو زادت.. فكان رحمه الله كلما اشتدت به الآلام وأرقت ليله، وحرمته لذة النوم أسرع إلى القلم والقرطاس يسجل ما تفيض به نفسه من معاني روحية سامية، يناجي بها ربه في جوف الليل الطويل[1].

وكان رحمه الله راضياً بحكم الله وقضائه، وكلما سئل عن حالته كان جوابه: الحمد لله.. وقد رُويت عنه هذه الحادثة التي تبين مدى قوة إيمانه بالله ورضائه بحكمه، فعندما كان في المستشفى زاره أحد أصدقائه مواسياً له فكان جوابه بعد أن شكره على مواساته:

«قد تجد قولي غريباً ولكني أقول الحق وسأفسر ذلك.. إني مريض أتألم ليس في ذلك ريب.. وإنك لتشاهد الألم على وجهي وعلى يدي

---

(١) محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٦٠.

وفي حركتي . . لكن انظر إلى حكمة الله فيّ . إن الله قدير على أن يشلّ حركتي، وقد شلّ بعض حركتي، ولكن انظر ماذا شلّ. لقد شلّ طرفي الأيسر وأبقى لي الطرف الأيمن فما أعظم النعمة التي أبقى لي! أكنت استطيع أن أخط بالقلم لو شل اليمنى مني؟ إن الله قدير على أن يأخذ بصري وأنا محتاج إلى بصري أكثر من أي شيء آخر لكنه أبقاه فهل هناك لطف أكثر من هذا اللطف؟ إن الله قدير على أن يخمد قريحتي لكنه أبقى لي قدرة الفكر والعقل فما ألطفه بي، إن الله قدير على أن يشل لساني فيمنعني عن الكلام لكنه أكرمني ببقاء قدرتي على الكلام أفليس ذلك فضلاً منه وعفواً؟ لقد قضى الله أن يشل حركتي في السياسة فشلّها لكنه أبدلها بنعمة خير منها: إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم. أكنت تراني كتبت ما كتبت وألّفت ما كتبت لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قوية شديدة فما أعظم لطف الله وكرمه ومنته ونعمته. أفيحق لي بعد ذلك أن أشكو وأن أتذمر؟ أوَ لا يجب عليّ أن أشكر الله على نعمائه؟»[٢].

لقد ضرب السباعي مثلاً رائعاً في شكره لله في السراء والضراء، فكان نموذجاً فريداً في طاعته للأوامر الإلهية واستجابته لدعوة الحق.

وفاة السباعي:

في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ الموافق للثالث من تشرين الأول سنة ١٩٦٤م، انطفأت الشعلة المتوقدة، وهدأت الحركة الدائبة، وجف القلم السيّال، وسكت الصوت العذب الرنان، وتوقف القلب الكبير. . وانتقل السباعي إلى جوار ربه عن عمر لم يتجاوز التاسعة والأربعين. . وهكذا كانت نهاية المطاف رحلة طويلة أبدية

---

(٢) عبدالعزيز الحاج مصطفى: مصطفى السباعي رجل فكر، ص١٢٩.

إلى الله جل شأنه، بعد أن ترك طيب الله ثراه للأجيال المؤمنة من بعده تاريخاً زاخراً بالمآثر الخالدة، وصفحات لا تطوى من الجهاد المتواصل.

وفور انتشار النبأ، اهتز أثير البرق يحمل الخبر الأليم.. ونعى الفقيد الكبير إلى الشعب كلٌ من رابطة العلماء وجامعة دمشق وأعضاء الهيئة التدريسية في كليتي الشريعة والحقوق والهيئات الإسلامية والشباب المسلم وآل الفقيد. كما نعته الاذاعات العربية والعالمية مع ذكر نبذة عن حياته وجهاده. وحملت أسلاك البرق والبريد فيضاً غامراً من الرسائل والبرقيات من جميع أنحاء العالم، والتي تحمل الأسى والحزن العميق للخسارة الفادحة التي حلت بالإسلام والمسلمين بفقد رجل العقيدة والعلم والجهاد.

يقول الدكتور عدنان زرزور عن جهاده عند وفاته[٣]: «توفي رحمه الله والمداد الذي كان يدافع به عن سنة رسول الله ﷺ لم يجف بعد! ليست هذه صورة العالم فحسب، ولكنها قبل ذلك صورة المجاهد المحارب الذي يذود عن دينه بما يستطيع، لأنه كان على حالة من المرض والألم بحيث لو عاف منها القلم والكتاب واللسان كذلك لما لامه أحد.. بل كان محبوه وعارفوه من حوله يشيرون عليه بذلك رحمة به وإشفاقاً عليه!! ولكنها طبيعة المجاهد الذي لا يلقي سلاحه حتى اللحظة الأخيرة.. ورسالة الداعية الذي يخشى أن يخرج من الدنيا قبل أن ينصر دعوته أو ينتصر لها ولو بكلمة يخطّها أو قول يقوله.. ولطالما رأيته ـ رحمه الله ـ يمسك بيمينه القلم ويرتجف تحت يساره القرطاس، يستجيب من قمة آلامه لما تمليه عليه القريحة النافذة، والروح العميقة.. والعقل القوي، غير عابىء بما

---

(٣) الدكتور عدنان زرزور: مقدمة كتاب «عظماؤنا في التاريخ»، ص١٣.

يقرؤه جليسه على وجهه من آثار الآلام العصبية الحادة. . وكأنها إنما ترتسم على وجه آخر غير وجهه، وتحط على جسم آخر غير جسمه. . كانت آلامه هي التي تحدثنا عن نفسها، أما هو ـ شهد الله ـ فلم يكن يجأر بالشكوى إلا بمقدار ما يعلمنا الصبر على قضاء الله، والخضوع لحكمته، والصبر على بلائه. . فكنت أقول في نفسي: ما أروع هذه القضية التي يعيش لها هذا المجاهد الصابر المحتسب. . وما أصدقه من داعية باع لله ما يملك. . ثم اشترى الله منه ما شاء حين شاء، إن الله يفعل ما يريد. . ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

تشييع السباعي:

في صباح اليوم التالي الوفاة الفقيد بدأت الجماهير والوفود التي قدمت إلى دمشق من مختلف المحافظات والبلاد المجاورة تتوافد إلى بيت الفقيد لتلقي النظرة الأخيرة على القائد الراحل وتودعه وتشارك بتشييعه إلى مثواه الأخير. وفي الساعة الحادية عشرة غصت الشوارع والساحات المحيطة بمنزل الفقيد بألوف المشيعين. . وخرجت مئات الآلاف من أبناء سورية بل وخرجت دمشق عن بكرة أبيها تودع قائدها. . وبدأ الموكب سيره تتقدمه السيارات التي تحمل أكاليل الزهور باسم ممثلي الدول العربية والإسلامية في دمشق وباسم مختلف الجمعيات والهيئات الإسلامية. . وسار في المقدمة سفراء الدول العربية والإسلامية، والعلماء وأساتذة الجامعة وممثلو الهيئات وأهل الفكر والمثقفون والشباب المؤمن الذي حزن على فقد قائده ورائده. وارتفع النعش على أذرع الشباب، وساروا به في شوارع دمشق الكبرى، وارتفعت أصوات الجماهير بالتهليل والتكبير، وانطلقت كلمات الوداع: «في ذمة الله يا سباعي. . إلى رحاب

الله يا سباعي . . على طريقك يا سباعي موكباً بعد موكب، نحن على العهد يا رائد الجيل . . اللهم إنا نشهد وهذه الجموع تشهد أن السباعي أدى الأمانة وبلّغ الرسالة على طريق رسول الله ﷺ، فدعا الأمة إلى ربها، . اللهم إرض عنه فإنا عنه قد رضينا[٤]».

وغص المسجد الأموي على اتساعه بألوف المصلين، وأقيمت للجنازة صلاة لم تشهدها دمشق منذ زمن طويل. وارتفع نعش السباعي على أكف الشباب الذين أحاطوا به من كل جانب، واتجهوا به إلى مقبرة باب الصغير، حيث يرقد فيها صفوة من أهل التقوى والإيمان من علماء دمشق. . ورددت أصوات الآلاف من الشباب قسم العهد بالثبات والوفاء للدعوة الإسلامية التي حمل السباعي لواءها. وتوالى الخطباء على المذياع يؤبنون الفقيد بكلمات مؤثرة، يعددون فيها بعض مزاياه وشمائله. . وكان أول المتكلمين الدكتور حسن الهويدي، ثم الأستاذ محمد المبارك، والأستاذ محمد المجذوب، والأستاذ مشهور حسن (من الأردن)، والشيخ عبدالرؤوف أبو طوق باسم رابطة العلماء، والدكتور أديب الصالح، والأستاذ الشاعر محمد الحسناوي. . وبعد ذلك تقدم المشيعون من آل الفقيد يشاركونهم العزاء. .

يقول الشيخ محمد المجذوب عن موكب التشييع[٥]: «وصلت دمشق ظهر اليوم التالي ـ لوفاة الدكتور السباعي ـ ولم أعرف مكان الجثمان إلا من انقطاع حركة المواصلات في شارع مدحت باشا، وسرعان ما ابتلعني موكب الجنازة العزيزة كقطرة ماء لامست السيل الهادر، الذي ما لبث أن ملأ شارع الحميدية حتى قلب الجامع الأموي!. وأبت دمشق الوفية

(٤) عبدالعزيز الحاج مصطفى: مصطفى السباعي رجل فكر، ص١٣٦.

(٥) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٨١.

المؤمنة أن تحمل السيارة جسد البطل الذي طالما هزّ منابرها وأثار عزائمها وحفز شبابها لاستعادة مكانتها في خدمة الإسلام، وتحرير أرض الإسلام، فإذا هي تتداول نعشه على الراح حتى المقبرة، التي ضمت من قبله أجساد الأباة من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم من أعلام الهداة..

وفي غمرة الأنين والنشيج وانطلاقات الأصوات المؤمنة بشعارات السماء، التي وقف الفقيد حياته الغالية على تركيزها وتحقيقها، والتي بذل في نصرتها آخر أنفاسه في لحظاته الأخيرة.. وجدتني أتساءل وأتذكر.. أتساءل عن السر الذي يحفز هذه السيول من الجموع على تحمل الحر والزحام طوال ساعات، لا تفارق الموكب الحزين حتى تودع الثرى جثمان الرجل، الذي زحفت لتشييعه من أنحاء القطرالسوري، ومن كل بلد مجاور..

أتقديراً لعلم الفقيد.. وقد كان من العلم في المكان المرموق.. أتعظيماً لجاه ناله من الدنيا؟ وقد كان له الجاه الذي يغبطه عليه الكثيرون من أهل الدنيا.. أم تزلفاً إلى قوم من الأحياء يبتغون لديهم المنفعة بهذه المشاركة!.. ولكن كثيراً من العلماء الكبار يموتون كل يوم، فما يكاد يحس بهم أحد.. وأكثر من هؤلاء أصحاب الجاه الذين تسنّموا بالحق أو بالباطل أرفع المنازل، ثم ذهبوا من هذه الدنيا أذلة لا يكاد يذكرهم أحد، إلا عند تعداد السيئات، وتوزيع اللعنات..

وأما المنفعة فهي أبعد الأشياء عن هذه المناسبة.. بل لعل ضررها على المشارك فيها هو الشيء الطبيعي، الذي لا ينبغي أن يتوقع سواه.

والحق الذي يحسه كل ذي ضمير، ويدركه كل ذي تفكير، هو أن هذه الألاف المؤلفة إنما زحفت ونصبت وصبرت تمجيداً للفكرة التي دفع

السباعي حياته كلها ثمناً لها، وأذاب قلبه الكبير وقوداً لاستيفاء وهجها، في إخلاص لله لم يَشُبْه مطمع دنيوي، وجهاد للحق لم يستهدف سوى تحرير الوطن الإسلامي من سلطان الطغيان أياً كان مصدره، وتحريراً للفكر العربي والإسلامي من كل استعباد مهما يكن أثره ومؤثره.

والإخلاص لله، والجهاد في سبيله، كانا وما انفكا في تاريخ هذه الأمة مبعث العزة، ومنطلق الخلود. وصدق الفاروق أمير المؤمنين إذ يهتف في وجه أبي عبيدة أمين هذه الأمة: «.. نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما نبتغ العزة بغيره أذلنا الله».

ألا فليت المخدوعين بمغريات الدنيا، يفطنون لهذه الحقيقة فيصونوا جباههم من تراب الهوان، ويرتفعوا بأنفسهم ونواياهم وأعمالهم إلى المستوى الذي يفرضه الإيمان، ليستحقوا مثل هذا الذي انتهى إليه أبو حسان.

وأخيراً، إنها لكرامة أي كرامة، أن تكون جنازة أبي حسان فرصة لإثارة الروح الإسلامي الذي توهم كثير من قصار النظر أنه قد اندثر!..

ولا عجب، فإن هذا الإسلام الذي أراد الله أن يكون أبداً مدرسة الأبطال، قد جعل مصطفى السباعي بطلاً يرهف في حياته العزام، ويبدع في مماته العظائم».

الوفاء للراحل الكبير:

أُقيمت حفلات تأبين كبيرة وفاء لذكرى الفقيد الكبير في سورية ولبنان والأردن والسودان والعراق، وفي بلدان عربية وإسلامية أخرى.. ومن هذه الحفلات:

وفاء دمشق: كانت دمشق في اليوم الثامن عشر من كانون الأول

١٩٦٤م على موعدها الأول في طريق الوفاء للراحل الكبير مصطفى السباعي، فقد أقامت جامعة دمشق حفلاً تأبينياً ضخماً على مدرجها الكبير تكريماً لذكرى رجل العلم ومؤسس كلية الشريعة وعميدها الأول، والأستاذ في كليتي الشريعة والحقوق ورئيس قسم الفقه الإسلامي في جامعة دمشق الدكتور مصطفى السباعي . .

وفي موعد الحفل توافد جمهور غفير من أساتذة الجامعة والعلماء والمثقفين والشباب المؤمن للمشاركة في تخليد ذكرى الراحل الكبير حتى أن المدرج الكبير قد ضاق على رحبه بالوافدين، واضطر أكثرهم للوقوف في الممرات والساحات المحيطة بالمدرج . .

وقد بدأ الحفل بآي من الذكر الحكيم، ثم اعتلى منصة الخطابة عريف الحفل الدكتور أديب الصالح فتكلم عن جوانب من شخصية الفقيد وأشار إلى أن هذا الحفل يشكل خطوة أولى في طريق الوفاء للراحل العظيم، وطالب جامعة دمشق التي خدمها الفقيد بعلمه وجهوده أن تفي لذكراه وترعى آثاره ومدرسته الفكرية، ثم قدّم الخطباء فكانوا على التوالي :

الدكتور إسماعيل عزت وكيل جامعة دمشق فتكلم باسم الجامعة. ثم ألقى الدكتور محمد الفاضل عميد كلية الحقوق كلمة قوية رائعة تحدث فيها عن المزايا العظيمة للفقيد. وتكلم الأستاذ محمد المبارك العميد السابق لكلية الشريعة فتحدث عن مراحل جهاد السباعي. وتكلم الدكتور صبحي الصالح فتحدث عن حيوية السباعي المتكافئة مع أحداث العصر. ثم تكلم الدكتور يوسف العش عن الجانب الثقافي والفكري في عقل السباعي. وكانت خاتمة الحفل مفاجئة رائعة أثارت النفوس حين أدير تسجيل صوتي لمقطع من خطبة قديمة للفقيد العظيم، يعرض فيها جانباً من إنسانية الإسلام وضرورة الدعوة إليه.

وفـاء بيروت: وكانت الهيئات الإسلامية في لبنان قد أقامت حفلاً تأبينياً كبيراً في الأسبـوع الأول من شهـر كانـون الأول ١٩٦٤، تكريماً لذكرى فقيد الإسلام الدكتور السباعي. . وفي موعد الحفل توافدت إلى «الخلية الاجتمـاعية» ببيروت الشخصيات الإسـلامية وجماهير الشباب المؤمن. . وكـان عريف الحفـل الأستـاذ محمـد عمـر الداعوق، فقدم الخطباء الذين كانوا على التوالي: الأستاذ عبدالله مشنوق، والشيخ فهيم أبو عبية، والدكتور عمر فروخ، والدكتور صبحي الصالح، والأستاذ فتحي يكن رئيس الجمـاعـة الإسلامية في لبنان. . وتحدث الجميع عن مآثر الفقيد ومناقبه[٦].

وفاء مؤسسة الرسالة: ومن الوفاء أيضاً لأستاذنا السباعي أن نسجل سيرته العطرة في هذا الكتاب ليقتدي به الشباب وتتربّى على نهجه الأجيال.

---

(٦) مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٢٤٧.